المقدّمة

تعتبر الفنون الشعبية معيارا لعراقة حضارات الشعوب لأنّها عوائد للعمران ترسخ في الأجيال بالتّكرار وطول أمد الحضارة، فيصعب استئصالها حتّى وإن تدهورت أوضاع البلاد وساءت أحوالها وآلت إلى الانحطاط ، وتبقى دائما آثار منها لا نجدها في البلدان المستحدثة العمران، وبالتالي فهي دليل على المستوى الحضاري الحقيقي للأمم يساهم بشكل كبير في تحديد الهويّة والكيان الثقافي للشعب ويبرز ذاتية المكان وخصوصية المجتمع والمحتوى التاريخي والتطبيقي لثقافته المادية .

ولطالما اعتبرت دراسة الفنون الشعبية ضرورة يفرضها التنقيب عن الجذور الحضارية والثقافة الأصلية للشخصية الوطنية، قصد إثبات الذات وصيانة الهوية والصمود في ظلّ الحداثة التي تصبغ العالم اليوم بصبغة واحدة تفرضها العولمة.

إذن الفنون الشعبية ركيزة مهمّة من ركائز تراثنا وحضارتنا ، ومن المعروف أنّ الاستعمار الفرنسي سعى جاهدا على امتداد ما يربو على قرن من الزمان لطمس آثار حضارة الشعب الجزائري كي يدمّر فيه روح الاعتزاز والكبرياء، وحاول إقناع الأهالي المغلوبين أنّهم متخلّفون وبدائيون لا أمجاد ولا تاريخ لهم وأنّ للمستوطنين الفضل في جلب الحضارة الغربية إليهم.

وفي ظلّ هذه الظروف عزم الرسّام الفرنسي إيتيان دينيه على تكريس فنّه ووقته لتدوين التراث الجزائري لإنقاذ ما يمكن إنقاذه من الاندثار، وأعار الفنون الشعبية على وجه التحديد اهتماما خاصّا كي يجعل من لوحاته شاهدا على استبحار الأهالي في الحضارة أنفا، ويكشف للعالم أجمع بهتان الاستعمار الفرنسي وتزييفه للحقيقة. ذلك أنّه أحب الجزائر أرضا وشعبا و دينا، وأدى اعتناقه للإسلام ونصرته له إلى تعرضه لوابل من الاتّهامات، ففتحت عليه أبواب النقد، وطعن في صدق إسلامه، وأخمد ذكره للتعتيم على فنّه ومؤلّفاته، ولقي إنكارا وجحودا ، وجرف إلى عالم النسيان بالآلة الاستعمارية نفسها التي حاولت إقبار تاريخ وثقافة الشعب الجزائري وبتر صلته بماضيه واجتثاث أصالته من الأعماق. وهي آلة تستمدّ وقودها من الإسلاموفوبيا.

ومن هنا جاءت فكرة الدراسة وشعرت أنّه من الواجب ردّ الاعتبار لهذا الفنّان بنفض الغبار عن سيرته وأعماله ، وأنّ دراسة الفنون الشعبية من خلال لوحاته تساهم في إخراج ما وارته فرنسا التراب وتحفظ وتخلد ولو جزءا بسيطا من التراث الجزائري الذي يعتبر عنصرا أساسيا في هيكلة الشخصية الثقافية والحضارية للجزائر، و تسلّط الضوء على رسّام مفكّر وكاتب لم تنصفه معظم الدراسات مقارنة بما قدّمه من خدمات جليلة للجزائر والإسلام ، وتدحض بعض الافتراءات والتهم الملفقة ، وتضع بين يدي المتلقي مجموعة من الأدوات التي تساعده على الفهم الصحيح لفنّه شكلا ومضمونا.

لقد خلّف دينيه ما يزيد على 500 رسم يصف الحياة العربية لكن من المؤكّد أنّه لم يحط بكلّ الفنون الشعبية وأنّه انتهج أساليب معيّنة في تمثيلها ، فما هي الفنون التي دوّنها إذن؟ وما هي قسماتها؟ وماهي المناهج التي اعتمد عليها في تخليدها؟ وكيف يمكن قراءتها؟.

ولاشكّ أنّ أهم الأسباب التي تحول دون فهم المتلقي للفحوى العميق للوحاته هو قلّة الدراسات التي تجمع بين الفنون التشكيلية والثقافة الشعبية فهما تخصصان مختلفان لكنّهما اجتمعا في لوحات هذا الرسام.

وانطلاقا من هذا الواقع ووضوح معاني الإشكال ارتأيت أن تكون هذه الدراسة ملمّة بالتخصصين معا ولتحقيق ذلك كان علي القيام بمجموعة من الرحلات لكون مادّة البحث موزّعة بين بوسعادة والجزائر وقسنطينة ووهران ومصر و فرنسا ولجأت إلى جمع بعض التفاصيل الخاصّة بتراث بوسعادة وببعض

القصور من السيدة حركات العطرة مسعودة وهي من مواليد 1923م ببوسعادة، والسيدة قجال زينب الساكنة بقصر البخاري ووهي من مواليد 1930م.

ولا يفوتني أن أشير إلى أنني اعتمدت على مؤلّفات دينيه التي توضّح أفكاره وتصوّراته ومبادئه ومعتقداته وخبرته الفنية وتجاربه وأبحاثه العلمية، وتتضمّن أيضا قراءاته الشخصية لعدد من لوحاته وتصف الواقع الاجتماعي وتدوّن جزءا من التراث. وهذا ساعد بشكل كبير على الغور في البحث وبلوغ الأسرار والخفايا.

ومن المؤكّد أنّ فهم الموضوع وإدراك صعوباته يؤثّران في صياغته المنهجية إذ اقتضت طبيعته أن يكون في مدخل وأربعة أبواب:

فأمّا المدخل فقد خصّصته للحديث عن الفنون الشعبية بالجزائر والاستعمار الفرنسي، وتطرّقت فيه إلى مفهوم الفنّ الشعبي، وخصائص الفن التقليدي، ووضّحت فيه أنّ الفنون الشعبية هي معيار لعراقة حضارات الشعوب، وأنّ الاستعمار الفرنسي استهدف ثقافة الشعب الجزائري ودينه لطمس هويته وتاريخه واجتثاث جذوره الحضارية، وانّ تراجع الصنائع نتيجة حتمية للخراب الذي ألحقته فرنسا بالعمران الحضري الجزائري، وتحدثت فيه عن تراجع الفنون المحلية وانتشار الفن الغربي بالجزائر.

وتعرّضت في الباب الأوّل إلى سيرة الفنّان ناصر الدين دينيه وآثاره وقسّمته إلى فصلين وخصّصت الفصل الأوّل لحياة دينيه قبل اعتناقه الإسلام(1861م-1913م)، وهو مقسّم بدوره إلى مبحثين وتناولت في المبحث الأول حياة دينيه قبل اكتشافه للجزائر و تطرّقت في المبحث الثاني إلى حلوله بالجزائر واستشراقه في الفنّ.
وتعرّضت في الفصل الثاني إلى حياته في ظلّ العقيدة الإسلامية وهو مقسّم إلى ثلاثة مباحث ،المبحث الأوّل تناولت فيه اعتناقه للإسلام، والمبحث الثاني تطرّقت فيه لنصرته للإسلام، والمبحث الثالث تحدّثت فيه عن العشرية الأخيرة من حياته.

وأمّا الباب الثاني فخصّصته للعمارة التقليدية في لوحات دينيه و يضمّ فصلين و تعرّضت في الفصل الأوّل إلى للفنّ المعماري الجزائري التقليدي والاستعمار الفرنسي، ويتألّف من ثلاثة مباحث، المبحث الأوّل تطرّقت فيه إلى الجذور التاريخية والثقافية للفنّ المعماري الجزائري، وتناولت في المبحث الثاني الفنّ المعماري الجزائري في عهد التحالف العثماني، وخصّصت المبحث الثالث للهيمنة الاستعمارية وانتشار الطراز المعماري الغربي على حساب الطراز المعماري الموروث بالجزائر.
وفي الفصل الثاني تطرّقت إلى توظيف فنّ الرسم في تخليد العمارة التقليدية عند دينيه وقسّمته إلى مبحثين وتعرّضت في المبحث الأوّل إلى العمارة التقليدية في رسوم دينيه الانطباعية، وتناولت في المبحث الثاني العمارة التقليدية من موضوع إلى خلفية للوحة عند دينيه

وأمّا الباب الثالث فيتضمّن الرقص والألعاب الشعبية في لوحات دينيه، وهو مقسّم إلى فصلين ويتحدّث الفصل الأول عن الرقص الشعبي في لوحات دينيه، ويتألّف من مبحثين و تطرّقت في المبحث الأول إلى الرقص والغناء والموسيقى في الجزائر قبيل وإبّان الاحتلال الفرنسي، وتناولت في المبحث الثاني الراقصة النايلية في لوحات دينيه .
وفي الفصل الثاني تطرّقت إلى الألعاب الشعبية في لوحات دينيه، وهو مقسّم إلى مبحثين المبحث الأوّل يتحدّث عن ألعاب الأطفال والمبحث الثاني خصّصته للفروسية وألعاب البارود.

وأمّا الباب الرابع فتطرّقت فيه إلى الألبسة والحلي التقليدية في لوحات دينيه، ويتألّف من فصلين وتناولت في الفصل الأوّل المنسوجات والألبسة والحلي التقليدية في الجزائر إبّان الاحتلال الفرنسي، وهو

مقسّم إلى ثلاثة مباحث، ويتحدّث المبحث الأوّل عن المنسوجات التقليدية في الجزائر إبّان الاحتلال الفرنسي وفي المبحث الثاني تناولت تاريخ وخصائص الألبسة التقليدية الجزائرية، وخصّصت المبحث الثالث للحلي التقليدية الجزائرية.

وتعرّضت في الفصل الثاني إلى توظيف الألبسة والحلي التقليدية في رسوم دينيه وانعكاساته على مظهر اللوحة ومضمونها، وهو مقسّم إلى مبحثين المبحث الأوّل يتحدّث عن استعمال اللباس والحلية في التعبير التشكيلي وتأثيره في مظهر اللوحة، و المبحث الثاني هو في أنّ الأزياء التقليدية مادّة واصفة متعدّدة الدلالات.

ولجأت في تطبيق هذه الخطّة إلى طريقة تعتمد أساسا على المنهج التاريخي والمنهج التحليلي والمنهج المقارن والمنهج الوصفي..

وأخيرا خلصت إلى خاتمة أوجزت فيها مراحل هذه الدراسة وهي مبثوثة في نهاية الرسالة

وفي النهاية لا يسعني إلاّ أن أتقدم بجزيل شكري وتقديري لأستاذي الدكتور شريفي عبد اللطيف الذي أشرف على هذه الرسالة بإرشاداته وتوجيهاته القيّمة، وأرجو أن أكون قد أوفيت الدراسة حقّها وأن يكون هذا البحث قد عوّض عن النقص الذي تعاني منه المكتبة الجزائرية في هذا الميدان.